

سيرة المصطفى ﷺ

حسن الحاج

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١).
لقد بعث الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ رحمةً للناس جميعاً ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢).
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا... ﴾ (٣).

وختم الله به الأنبياء والرسل

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ... ﴾ (٤).
وقضى بقاء واستمرار رسالته إلى نهاية الدنيا وحلول يوم القيامة. كما أن الرسول محمداً ﷺ هو اللبنة الأخيرة في مشروع البناء العظيم الذي يمثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لبناته. وقد أخبر ﷺ بأنه اللبنة الأخيرة وأنه الذي ختمت

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) سبأ: ٢٨.

(٤) الأحزاب: ٤٠.

به الأنبياء والرسل ، حيث قال: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأجمله إلا موقع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^(١).

إن اختيار الرسول محمد ﷺ للرسالة كان بمشيئة الله تعالى الذي خلق الناس جميعاً، وهو العليم بذواتهم وخصائص كل منهم فوق اختياره على عبده ذي الخصائص والملاكات المناسبة لرسالته تعالى دون غيره من العالمين، يقول تعالى في كتابه المجيد:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾^(٢).

يقول الألوسي في تفسير هذه الآية: إن منصب الرسالة ليس مما ينال مما يزعمون من كثرة المال والولد وتعاضد الأسباب، وإنما ينال بفضائل نفسانية ونفس قدسية أفاضها الله تعالى بمحض الكرم والجود على من كمل استعداده. ونص بعضهم على أنه تابع للاستعداد الذاتي وهو لا يستلزم الإيجاب الذي يقول به الفلاسفة؛ لأنه سبحانه إن شاء أعطى وإن شاء أمسك، وإن استعد المحل^(٣).

لهذا فقد اختار الله لدينه الذي ختم به كل رسالاته مكاناً ملائماً، واختار لحملة خير أمة أخرجت للناس، كما اختار أعظم رجالها رسولاً ونبياً ﷺ بملاكات وخصائص جعلته خير من يتلقى الوحي ويبلغه للناس ويتحمل في سبيل ذلك كل اضطهاد وعنت، كما هي سنة الله مع كل رسالاته ورسله ..

ولولا أن النبوة اصطفاء وإحسان لقلنا إن الرسل بصفاتهم يستحقونها كسباً، لكن جمهور المسلمين أجمعوا على أن الرسالة لا تكتسب فلا بد أن يخلق الله لها استعداداً خاصاً عند صاحبها بحيث يجعله أهلاً لحملها وإبلاغها، وبعد ذلك يصطفيه للرسالة ..^(٤)

(١) صحيح البخاري، المناقب، باب خاتم النبيين ٢: ٢٧٠.

(٢) القصص: ٦٨.

(٣) الألوسي، روح المعاني ٨: ١٢٢.

(٤) الدكتور أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها: ١١٤.

لقد خلقه الله وهياً وكفل الله له التربية السليمة حتى يكون أهلاً لتحمل أمانة الرسالة وتبليغها، وحتى يصطفيه الله تعالى مرّاً بمرحلتين: مرحلة نشأة وتهيئة، ومرحلة تكليف وإبلاغ.

وأنا، وقبل أن أتحدث هنا في هذه المقالة عن عوامل استعداد الرسول ﷺ لحمل الرسالة الخاتمة وإبلاغها إلى الناس كافة، أقول: وإن كان لهذه العوامل أثر في بناء الرسول ﷺ روحياً ونفسياً وجسماً وبناء ملاكاته - كما يذكرون - إلا أن الإعداد الرباني المختص به دون العالمين والصناعة السماوية الخاصة له أيضاً دون العالمين والعناية الفائقة به من قبل الله تعالى دون العالمين، يبقى كل هذا هو الأساس في بنائه وهو العامل الرئيس في إعداده؛ لأنه النبي المعد والرسول المهيوّ لحمل الأمانة العظمى والرسالة الكبرى التي تحتاج إلى إناء خاص وبوتقة تصهرها فيه ويصهرها هو الآخر، فيكون النموذج التطبيقي الأول لها والمبلغ الأول لها والمسؤول عنها مسؤولية كاملة أمام الله وأمام الناس جميعاً، ولا يحصل هذا إلا مع توفر الصفات والمقومات التي تضيفها السماء عليه...

ومع هذا، فإن هذه المقالة تتعرض لتلك العوامل المؤثرة في بنائه ﷺ حتى نكون على علم بما يتوفر عليه ﷺ من أصل ونسب كريم ونشأة حسنة وخصائص طيبة، صاغت مرحلة نشأته وبنائه النفسي والجسمي أيضاً:

نسبه وأصله

كان رسول الله ﷺ من بني هاشم، وهم سادات قريش وأشرافها، وقد عرفوا أنهم سلالة طيبة وعائلة كريمة.. امتازوا على غيرهم من قبائل العرب بخصائص فريدة وشمال نادرة تركت بصماتها عليه ﷺ.

ولعلماء الوراثة كلام يدور حول تأثير كل شخص بما يحمله نسبه من خصائص جسمية وعقلية وفكرية وعقيدية...

«ولا تكون الوراثة عاملاً هاماً في نقل الصفات الحسية فحسب، وإنما كذلك عن طريقها تنتقل الصفات الأدبية كالأمزجة والميول والغرائز، والصفات العقلية كالذكاء والبلادة وحسن تقدير الأمور أو سوء أو شدة الانتباه أو ضعفه إلى غير ذلك من صفات يكون لها الأثر الأقوى في تكوين أخلاق المرء وتكييفها وطبعها بطابع معين خيراً كان ذلك الطابع أو شراً حسناً أو قبيحاً».

روت أم المؤمنين عائشة أن رسول الله ﷺ دخل عليها مسروراً تبرق أسارير وجهه فقال: «ألم تسمعي ما قال المدلجي لزيد وأسامة ورأى أقدامهما فقال: إن بعض هذه الأقدام من بعض»^(١).

وهو الذي تدل عليه الآية: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كُفَّارًا ﴾^(٢).

(١) الدكتور محمد البيطار، في العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع: ٢٤٠؛ وصحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ٢: ٢٧٢.

(٢) نوح: ٢٦-٢٧.

وابن كثير في تفسير هذه الآية يقول: أي فاجراً في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكنته بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً..
﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(١).
وقوله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء». على الفطرة: على معرفة الله فليس هناك واحد إلا ويقر بأن له صناعاً وإن سماه بغير اسمه أو عبد غيره.

جدعاء: مقطوعة الأطراف^(٢).

وهذا يثبت أن الولد يتأثر بأبويه من ناحية الجسم والبنية، والعقل والذكاء، والفكر والعقيدة، قليلاً أو كثيراً، سلباً أو إيجاباً، وذلك بإرادة الله وقدرته. إذا عرف هذا ننظر إلى نسب رسول الله ﷺ ومدى تأثيره به. لقد هيأت العناية الربانية سلسلة ممتازة من الآباء والأجداد للنبي ﷺ ليرث منها أدباً عظيماً وشمائل جميلة... وقد وردت في هذا المضمار نصوص كثيرة تدل على أن نسب النبي ﷺ هو أفضل النسب.

ففي تفسير الآية: ﴿وَتَقَلَّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾^(٣).

عن مجمع البيان: ... وقيل: معناه وتقلبك في أصلاب الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً عن ابن عباس في رواية عطا وعكرمة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله صلوات الله عليهما، قالوا: في أصلاب النبيين نبي بعد نبي حتى أخرج من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم..

(١) الروم: ٣٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: كل مولود على الفطرة ٤: ٢٠٤٧؛ وغريب الحديث لابن الجوزي ٢: ١٩٩؛ و
النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١: ٢٤٧.

(٣) الشعراء: ٢١٩.

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وقد أشار النووي إلى أن بني هاشم أفضل العرب لا يداينهم في الأفضلية إلا بنو المطلب، مستدلاً بهذا الحديث^(١).

ويقول المبارك فوري عند شرحه لهذا الحديث: قوله: «إن الله اصطفى» أي اختار. يقال: استصفاه واصطفاه، إذا اختاره وأخذ صفوته، والصفوة من كل شيء خالصة وخياره^(٢).

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم خير القبائل فجعلني من خير القبيلة، ثم خص البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً»^(٣).

أي: أصلاً، إذ جئت من طيب إلى طيب إلى صلب عبد الله بن كاح لا سفاح^(٤). وشهادة أعدائه دليل على مكانته ﷺ عند قومه، فقد ورد في قصة أبي سفيان وهو مشرك ومن ألد أعدائه آنذاك مع هرقل ملك الروم عندما وجّه هذا الأخير لأبي سفيان عدداً من الأسئلة حول الرسول ﷺ ونسبه وكان من بينها:

كيف نسبه فيكم؟

قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

ثم قال هرقل في آخر القصة: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ: ٤: ١٧٨٢؛ والترمذي في سننه، أبواب المناقب عن

رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ: ٥: ٢٤٥؛ وشرح النووي على صحيح مسلم ١٥: ٣٦.

(٢) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي ١٠: ٧٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه في أبواب المناقب، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ، انظر ٥: ٢٤٤.

(٤) انظر: تحفة الأحوذى ١٠: ٧٦.

فكذلك تبعث الرسل في أنساب قومها..^(١)

يقول النووي: أي في أفضل أنسابهم^(٢).

ومما يدلّ على ذلك أيضاً ما جاء على لسان مفضّض مشركي قريش عتبة بن أبي ربيعة مع رسول الله ﷺ، حيث قال عند افتتاح كلامه مع الرسول: يا ابن أخي إنك منّا حيث قد علمت من السطة - أي عن أوساطهم حسباً ونسباً، أو الشرف - في العشيرة، والمكان في النسب...

وتشهد هاتان القصتان بما للرسول ﷺ من منزلة عظيمة في النسب عند قومه لإقرار أعدائه وأعداء رسالته حيث لم يستطيعوا أن يخفوا هذه الحقيقة مع أنهم كانوا يتهمونه بتهم باطلة، مرة بالسحر، ومرة بالجنون، ومرة بالشعر والكهانة. ومع هذا لم ينقل إلينا عن أحدهم تهمة واحدة يقدحون بها الرسول ﷺ من جهة النسب، كما أن النصوص الأخرى التي أوردناها تدل على أن العرب أفضل الناس من ناحية النسب، وأن الرسول ﷺ من أفضلها نسباً. فقد كان ﷺ من سلالة ذرية طيبة وعائلة كريمة وأسرة نبيلة في الصفات والخصائص سالحة في أخلاقها وسيرتها، محمودة في خصالها، رقيقة في شمائلها، متميزة في رجالها وسيادتها، فبنو هاشم سادة قريش، بل سادة الدنيا، فهم كما يقول الجاحظ: «ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلى العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسرّ كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، والمعدن الفهم، وينبوع العلم...»^(٣).

حقاً هذه سنّة الله في اختيار رسله جميعاً كما جاء في قول هرقل السابق.

يقول المحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: الظاهر أن إخبار هرقل

(١) صحيح البخاري، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١: ٨؛ وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ليدعوه إلى الإسلام ٣: ١٣٩٤؛ واللفظ للبخاري.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢: ١٠٥.

(٣) انظر: زهرة الآداب: ٥٩.

بذلك بالجزم كان على العلم المقرّر في الكتب السالفة .
 والحكمة في ذلك - كما قال النووي - أنه أبعد من انتحاله الباطل وأقرب إلى
 انقياد الناس له؛ لأن الناس يأنفون من الانقياد إلى رجل وضع من جهة، وكذلك
 الوضع لا تسوّى نفسه له قيادة الناس من جهة أخرى^(١).
 ولهذا كان لنسب رسول الله ﷺ ذي الأضلاب الشامخة والأرحام المطهرة
 تأثير كبير ورائع على شخصيته تارة وعلى قومه أخرى..
 وقول عمّه أبي طالب لرسول الله ﷺ حينما أراد إظهار دعوته وكان هذا
 في السنة الرابعة من البعثة النبوية المباركة يلقي الضوء الساطع على منزلة
 نسبه:

يا ابن أخي! إنك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً، والأعلى أباً، والله لا يسلفك
 لسان، إلا سلقته ألسنُ حداد، واحتدمته سيوف حداد، والله لتذلنّ لك العرب،
 ولقد كان أبي يقرأ الكتب جميعاً، ولقد قال: إن من صليبي لنبياً، لوددت أنّي أدركت
 ذلك فأمنت به، فمن أدركه من ولدي فليؤمّن به .
 كما أن لرضاعته في بني سعد آثاره عليه ﷺ، فبنو سعد قبيلة معروفة عند
 العرب في طبيعتها وسموّ خلقها، وقد أسلم أبوه من الرضاعة على يدي رسول الله ﷺ،
 وهو الحارث بن عبد العزى.. حينما قدم إلى رسول الله ﷺ بمكة حين أنزل عليه
 القرآن، فقالت له قريش: ألا تسمع يا حارث ما يقول ابنك هذا؟
 فقال: وما يقول؟

قالوا: يزعم أن الله يبعث الناس بعد الموت، وأن لله دارين يعذب فيهما من
 عصاه ويكرم من أطاعه، فقد شئت أمرنا وفرّق جمعنا.
 فأتاه فقال: أي بني، مالك ولقومك يشكونك، ويزعمون أنك تقول: إن الناس

(١) انظر في هذا كله: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤: ٩١ وحسن الألباني هذه القصة في تعليقه على فقه السيرة
 للغزالي. انظر هامش الصفحة: ١١٣؛ وفتح الباري شرح صحيح البخاري ١: ٣٦؛ وشرح النووي على صحيح
 مسلم ١٢: ٣٥.

يبعثون بعد الموت ، ثم يصيرون إلى جنة ونار؟
فقال رسول الله ﷺ: أنا أزعم ذلك ، ولو قد كان ذلك اليوم يَأْبَت لقد أخذت
بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم .

فأسلم الحارث بعد ذلك وحسن إسلامه ، وكان يقول حين أسلم: لو قد أخذ
ابني بيدي فعرفني ما قال لم يرسلني إن شاء الله حتى يدخلني الجنة .
«هذا النسب له أثره في رسول الله وكان له أثر فيمن يبلِّغهم رسول الله
شريعة الله، أما أثره في رسول الله فقد شبَّ عليه الصلاة والسلام مرفوع الرأس رغم
يتمه لا يعرف الذل ولا الخنوع، جريئاً في إعلان رأيه، تملأ الثقة بنفسه، أما أثره
فيمن دعاهم رسول الله إلى الإيمان والانضواء تحت راية الإسلام فإن أكبر شخصية
في العرب لا تجد غضاضة من الانضواء تحت راية الإسلام، وقبول محمد ﷺ رسولاً
وحاكماً؛ لأنهم يعترفون بأن محمداً ﷺ من أعرق بيوت قريش نسباً»^(١) .

إن هذا الأمر واضح وإن من يعارضه من قومه لم يكن ذلك لأصله ولنسبه،
ولا طعناً أو رفضاً لشخصيته، وإنما المعارضة مبنية لردع ما يدعوهم إليه .
﴿ فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾^(٢) .

ومما يؤيد ذلك ما جاء على لسان أبي جهل عدو الله وعدو رسوله، إذ قال
للنبي ﷺ: قد نعلم يا محمد أنك تصل الرحم وتصدق الحديث ولا تكذبك، ولكن
تكذب الذي جئت به فأنزل الله عز وجل:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾^(٣) .

إذن ، فالممانعة القرشية ورفضها وعنادها، لم يكن موجهاً لشخص
الرسول ﷺ ولا لخلقه وأدبه وسيرته فيهم، بل كان موجهاً إلى ما حمله من رسالة

(١) انظر: محمد قلعت ، التفسير السياسي للسيرة .

(٢) الأنعام: ٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ، وانظر: الحاكم ، المستدرک ٢: ٣١٥؛ وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ٤: ٩١ .

وما جاء به من دعوة وما طالبهم به من الدين ، وهو ما يدل عليه ما ذكرناه من آيات وأقوال وما يفيد منطوق قول أبي جهل السابق .

لقد عرضوا عليه كل شيء: المال والجاه والسلطان والسيادة والملك والمغريات الأخرى إن ترك دعوته هذه ودينه هذا كلياً أو جزءاً منه كحل وسط ..

وهذا قوله ﷺ لعنه أبي طالب رداً على ما قدمته قريش له من دنيا:

«يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا

الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته ..» .

وأما ما عرضه عتبة بن ربيعة موفد قريش على رسول الله ﷺ: ... وإنك قد

أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم

ودينهم ، وكفرت به من مضى من آباءهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها

لعلك تقبل منا بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع .

قال: يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من

أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا ، حتى

لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ...

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟

قال: نعم .

قال: فاسمع مني .

قال: أفعل .

فراح رسول الله ﷺ يقرأ له سورة فصّلت: ﴿ حم * تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ

أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ... ﴾

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه ، فلما سمعها منه عتبة ، أنصت لها ،

وألقي يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى

السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك^(١).
فعاد من حيث أتى بعد أن خاب مسعاه كما خابت جهودهم من قبل وباءت
بالفشل الذريع..

إن عرض هذه الأمور عليه يدل على اعترافهم بسمو مكانته النسبية عندهم
ورفعة أخلاقه وهو يتيم بني هاشم، وهو الصادق الأمين كما يعرفونه، لهذا قدموا له
كل ذلك ومنها السيادة عليهم، وإلا فهم يأنفون - كما عرف عنهم ذلك - أن يخضعوا
للوضيع مهما كان الأمر الذي يتمسك به، وخاصة إذا جاء بأمر يخالف عاداتهم
وتقاليدهم، مثل ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحنيف والدعوة إلى التوحيد
ونبذ الشرك والأوثان، وما كان سائداً في مجتمع مكة من عادات قذرة وتقاليد
جاهلية ومظالم..

نشأته وتربيته

هناك مراحل كثيرة مرّت بها حياة الرسول ﷺ قبل بعثته نبياً ورسولاً،
أشارت إليها آيات من سورة الضحى، وهي نعم عظيمة حظي بها رسول الله ﷺ:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾

فبعد أن ولد النبي ﷺ عام الفيل، ولد يتيماً حيث مات أبوه وهو في بطن أمه
وقيل: إنه مات بعد ولادته بمدة قليلة، وقد سخر الله له جده عبد المطلب فأواه
ورباه، ثم ماتت أمه وهو ابن ست سنوات، ولهذا لم يتنعم بحنين الأبوين، ومات
جده عبد المطلب وهو ابن ثمان سنوات..^(٢)

وبعد وفاة جده عبد المطلب، قيض الله له عمه أبا طالب وهو أخو والده

(١) السيرة النبوية ١: ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ١: ١٥٦، وما بعدها.

عبد الله لأمه وأبيه، فأحسن تربيته وراح يبذل كل ما في وسعه في رعايته في زمن طفولته وشبابه، وكذلك بعد البعثة حيث دافع عنه دفاعاً عظيماً أمام ضغوط قريش ومؤامراتهم. وهناك معنى آخر في الآية ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾: ألم يجدك واحداً مثيل لك في شرفك وفضلك فأواك إلى نفسه واختصك برسالته، من قولهم درة يتيمة إذا لم يكن لها مثيل قال:

لا ولا درة يتيمة بحر تتلألاً في جونة البياح

الجونة: سلة مستديرة مغطاة أدماء يجعل فيها الطيب والثياب.
وقيل: فأواك أي جعلك للأيتام بعد أن كنت يتيماً وكفياً للأنام بعد أن كنت مكفولاً، عن الماوردي..

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ فيها أقوال سبعة يذكرها صاحب مجمع البيان، نكتفي بأربعة منها:

وجدك ضالاً عما أنت عليه الآن من النبوة والشريعة، أي كنت غافلاً عنها فهداك إليها.. ونظيره ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾^(١).

وقوله ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ فعنى الضلال على هذا هو الذهاب عن العلم، مثل قوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.

ثانياً: وجدك متحيراً لا تعرف وجوه معاشك فهداك إلى وجوه معاشك...
ثالثاً: وجدك لا تعرف الحق فهداك إليه بإتمام العقل ونصب الأدلة والألطف حتى عرفت الله بصفاته بين قوم ضلال مشركين...

رابعاً: وجدك ضالاً في شعاب مكة فهداك إلى جدك عبد المطلب، فروي أنه ﷺ ضلّ في شعاب مكة وهو صغير فرآه أبو جهل وردّه إلى جده عبد المطلب، فنن الله سبحانه بذلك عليه، إذ ردّه إلى جده على يد عدوه، عن ابن عباس.
رابعاً: وجدك مضللاً عنك في قوم لا يعرفون حقك فهداهم إلى معرفتك

(١) الشورى: ٥٢.

وأرشدهم إلى فضلك والاعتراف بصدقك، والمراد إنك كنت خاملاً لا تذكر ولا تعرف فعرفك الله حتى عرفوك وعظموك .

﴿ وَوَجَدَكَ غَائِبًا فَأَغْنَى ﴾

أي فقيراً لا مال لك ، فأغناك بمال خديجة والغنائم ، وقيل: فأغناك بالقناعة ورضاك بما أعطاك ، عن مقاتل . واختاره الفراء قال: لم يكن غنياً عن كثرة المال لكن الله سبحانه أرضاه بما آتاه من الرزق وذلك حقيقة الغنى...^(١) فبعد أن واجه ﷺ حياة كدح صعبة وشاقة حيث عاش طفولته يتيماً وشبابه فقيراً ، هداه الله تعالى فاتجه إلى غار حراء للعبادة وترك قومه وما يعبدون من دون الله ...

فلقد كان ﷺ في صباه يشتغل برعاية الغنم كما هو سنة الأنبياء ، وقد ثبت أنه ﷺ كان يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط ، وهو ﷺ القائل: «ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم» .
فقال له أصحابه: وأنت؟

(١) الطبرسي ، مجمع البيان ، الآية .

فقال: «نعم كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة».

قراريط: مفردا قيراط وهو جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عشر في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين. والياء فيه بدل الراء فإن أصله من قراط^(١).

فكان ﷺ يعتمد على نفسه في فترة مبكرة من عمره الشريف. وإضافة إلى عمله هذا كان مع عمّه أبي طالب إلى الشام للتجارة.

أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال: «خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبط فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب...»^(٢). هذا ما ورد في فترة صباه.

وأما بعد بلوغه، فقد ورد أيضاً أنه كان ﷺ يذهب إلى الشام للتجارة بأموال خديجة (رضي الله عنها) قبل اقترانه بها.

يقول ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء وتجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظيم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام^(٣).

فقام ﷺ بوظيفته في تجارة السيدة خديجة خير قيام حتى كانت سبباً في زواجه

(١) انظر النهاية في غريب الحديث ٤: ٤٢؛ وصحيح البخاري في كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط ٢: ٣٢٣٣.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٥٢٠.

(٣) سيرة ابن هشام ١: ١٧٨-١٨٨.

إياها إثر رجوعه من ذلك السفر بعدما عرضت نفسها عليه بناءً على ما رآته فيه من صدق وأمانة، وما سمعته من ميسرة في شأن الرسول ﷺ من خيرٍ طوال مرافقته له في تلك الرحلة الميمونة .

يقول ابن كثير في السيرة: «فلما أخبرها ميسرة ما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك [أي شرفك] في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت نفسها عليه، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ، ذكره لأعمامه فخرج معه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام. وبعد اقتراحه ﷺ بخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها استغنى بما لها عن الكسب والضرب في الأرض؛ لأنه لم يرد في كتب السيرة أنه زاول نشاطاً اقتصادياً بعد ذلك، بل ورد أنه كان يذهب إلى غار حراء ليتعبد فيه فترة يرجع بعدها إلى خديجة ليتزود بمثلها، حتى جاءه الملك بأول آيات من القرآن، وهي صدر العلق من قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١) إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٢).

عن عائشة أنها قالت: «أول ما بدئ رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ.. إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٣). قال قتادة في هذه الآيات: «كانت هذه هي منازل رسول الله ﷺ قبل أن

(١) العلق: ١.

(٢) العلق: ٥.

(٣) السيرة النبوية ١: ٢٦٣؛ وأخرجه البخاري في صحيحه: باب بدء الوحي على رسول الله ﷺ ١: ٦.

يبعثه الله عز وجل»^(١).

وقد ذكر أكثر المفسرين هذه المراحل التي مرّ بها الرسول ﷺ عند تفسيرهم هذه الآيات من سورة الضحى، إلا أنهم يذكرون في كل مرحلة عدة أقوال محتملة ومعانٍ متقاربة لا يتسع لذكرها هذا المقام؛ لأن القصد هنا ليس ذكر أقوال المفسرين قاطبة وإنما ذكر ما يشير إلى هذه المراحل.

سيد قطب في معنى هذه الآيات يقول: «لقد ولدت يتيماً فأواك إليه وعطف عليك القلوب.. ولقد كنت فقيراً فأغنى الله نفسك بالقناعة كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك خديجة (رضي الله عنها) عن أن تحسّ الفقر أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء. ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد منحرفة السلوك والأوضاع فلم تطمئن روحك إليها ولكنك لم تكن تجد لك طريقاً واضحاً مطمئناً، لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرّفوا وبدّلوا وانحرفوا وتاهوا، ثم هدّك الله بالأمر الذي أوحى به إليك وبالمهج الذي يصلك به.

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنّة الكبرى التي لا تعدلها منّة، وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق، ومن التعب الذي لا يعدله تعب، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه في هذه الفترة من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب، فجاءت هذه تذكّره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه، وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه...»^(٢).

وبفهم من تفسير سيد قطب للآيات الثلاث من سورة الضحى كغيره من المفسرين أن المراحل الثلاث ليست على ترتيب الآيات من المصحف، حيث إنّ مرحلة الإغناء مقدمة على مرحلة الهداية.

يقول الدكتور محمد عزت دروزة ملخصاً ما ذكره المفسرون في هذا الصدد:

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٥٢٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، الآيات.

«إن الآية تحتوي إشارة إلى حادث تيهان وقع للنبي ﷺ في طفولته أو في إحدى رحلاته، ورووا في ذلك روايات كما قالوا: إنها تعني أنه كان غافلاً عن الشريعة التي لا تتقرر إلا بالوحي الرباني، أو أنه كان حائراً في أسلوب العبادة لله، ونفوا عنه أي حال أن يكون ضالاً، أي مندجماً في العقائد والتقاليد الشركية والنفوس لا تطمئن إلى رواية تيهان النبي ﷺ مضموناً وسنداً، بل إنها ليست متنسقة مع ما تضمنته الآية من من الله على النبي ﷺ بأعظم أفضاله عليه، وتفسير ضال بجائر يحمل معنى الآية على أن المقصود الحيرة في الطريق التي يجب أن يسار فيها إلى الله وعبادته على أفضل وجه. وهو المعنى الذي نراه»^(١).

ويبدو أن هناك حكمة فيما مرّ به رسول الله ﷺ من مراحل، وهي أن الله سبحانه وتعالى كان يربيّه ويدربه حتى يستطيع أن يتحمل عبء الرسالة الخاتمة وشؤونها وإبلاغها إلى الناس الذين دبّ الفساد في كل مفصل من مفاصل حياتهم وصدق قوله تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^(٢).

يقول صاحب كتاب «دراسة في السيرة» مشيراً إلى الحكمة من تلك المراحل: «ومن مرارة اليتيم ووحشية العزلة وانقطاع معين العطف والحنان قبس الرسول ﷺ الصلابة والاستقلال والقدرة على التحمل... وبالفقر والحرمان تربي ونما بعيداً عن ترف الغنى وميوعة الدلال.. وعبر رحلته إلى الشام في رعاية عمّه فتح الرسول ﷺ عينيه ووعيه تجاه العالم الذي يتجاوز حدود الصحراء وسكونها إلى حيث المجتمعات المدنية التي تضطرب نشاطاً وقلقاً... وفي رحلته الثانية إلى الشام مسؤولاً عن تجارة للسيدة خديجة تعلّم الرسول الكثير الكثير، عمّق في حسّه معطيات المرحلة الأولى وزاد عليها إدراكاً أكثر لما يحدث في أطراف عالمه العربي من علاقات بين الغالب والمغلوب... كما علّمه الانشقاق الأخلاقي عن

(١) محمد عزت دروزة، سيرة الرسول ﷺ: ٣٢.

(٢) الروم: ٤١.

الوضع المكي القدرة على مجابهة الأحداث»^(١).

والآن لا بد لنا من التحدث عما يتوفر عليه ﷺ من شمائل وصفات انبهر بها مناوئوه قبل أحيائه وأعداؤه قبل أصدقائه، وقد جعلت منه نموذجاً ربانياً رائعاً:

صفاته وأخلاقه

نشأ الرسول ﷺ في محيط جاهلي وبيئة وثنية تعبد فيها الأصنام والأوثان، ويستعبد القوي منهم الضعيف حتى أصبح الظلم أمراً مألوفاً وشيئاً معروفاً، وهو ما تحمله قصائدهم كقول زهير بن أبي سلمى في الصفحة ٨٨ من ديوانه:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم
هذا إضافة إلى عاداتهم الفاسدة وسلوكهم السيء كوأدهم البنات خوفاً من
العار والفقر، وأكلهم أموال اليتامى بحجة أنهم ضعفاء لا قدرة لديهم على حمل
السلاح والدفاع عن الأهل والعشيرة، وأكلهم الربا واستحلاله حتى اختلط
عندهم البيع والربا ولا يفرقون بينهما ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾^(٢).

وهذا الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يصف بدقة للنجاشي ملك
الحبشة أثناء الهجرة الثانية إلى الحبشة المجتمع المكي آنذاك فيقول:

«أيها الملك! كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش
ونقطع الأرحام ونسي الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا
رسولاً منا نعرف نسبه وأمانته وعفافه، فدعا إلى توحيد الله وأن لا نشرك به شيئاً،
ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم
وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور
وأكل أموال اليتيم...»^(٣).

(١) الدكتور عماد الدين خليل، دراسة في السيرة: ٤٧٤٩، بتصرف قليل.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام.

هذا وضع الساحة المكية يوم ذاك ، وقد حفظ الله تعالى رسول الله ﷺ من أن يتأثر بأحوال مجتمعه مع أنه شارك مع قومه في بعض الأعمال .

أنشطته ﷺ

هناك أعمال اشترك فيها رسول الله ﷺ مع قومه قبل بعثته ، أنشطة لا تخدش نبله ولا تسيء إلى سمعته وأخلاقه الطيبة:

١ - حلف الفضول

اشترك ﷺ قبل البعثة في حلف الفضول الذي وقع بين بطون من قريش لدفع الظلم وردّ المظالم إلى أهلها . يروي ابن هشام بسنده عن ابن إسحاق قال: «تداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنّه... فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجذوا في مكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تردّ عليه مظلمته ، فسّمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول»^(١) .
سمي هذا الحلف بالفضول إما نسبةً إلى الأشخاص المتحالفين الثلاثة الذين سمي كل واحد منهم بالفضل أو للسبب الذي من أجله تحالفوا ، وهو أن ترد الفضول على أهلها^(٢) .

ويقول ابن كثير بعد إيراد ذلك الحلف: «وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب وكان أوّل من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب»^(٣) .
وعلى هذا فكان اشتراكه ﷺ في ذلك الحلف شيئاً مهماً جداً ، لأنّ ردّ المظالم إلى أهلها من الأمور المحببة وقد جاء بها الإسلام فيما بعد؛ ولهذا أثنى الرسول ﷺ كما

(١) انظر حوله ما جاء في سيرة ابن هشام .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير .

(٣) السيرة النبوية ١: ٢٥٩ .

نسب إليه ، على ذلك الحلف بعد البعثة:
«لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب لي به حمر النعم ولو
دعيت إليه في الإسلام لأجبت»^(١).

٢ - حرب الفجار:

اشترك رسول الله ﷺ مع قومه في حرب الفجار التي وقعت بين قريش ومن
معها من كنانة وبين قيس عيلان ، وكان عمره ﷺ عشرين سنة كما ذكر ابن إسحاق
صاحب السيرة ..

وسببها كما ذكر ابن هشام في سيرته: أن عروة الرحال بن عتبة من هوازن
أجار لطيمة^(٢) للنعمان بن المنذر فقال له البراض بن قيس أحد بني ضمرة: أتجيرها
في كنانة؟ قال: نعم وعلى الخلق ، فخرج فيها عروة الرحال وخرج البراض لطلب
غفلته ، حتى إذا كان بتيمن ذي طلال بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض ،
فقتله في الشهر الحرام؛ فلذلك سمي حرب الفجار .
وكان دوره ﷺ في تلك الحرب أن يردّ على أعماه نبل عدوهم إذا رموهم بها؛
وقد نسب إليه أنه قال: «كنت أنبل على أعمامي»^(٣).

وكان هناك مبرر لاشتراكه ، وهو أن القتال لم يكن جائزاً في الأشهر الحرم
يومذاك ، حتى أنهم إذا أرادوا القتال في الأشهر الحرم أخروها إلى شهرٍ آخر لكي
يستحلوا فيها القتال ، كما بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن معيماً عليهم:
﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا
وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾^(٤).

(١) انظر سيرة ابن هشام .

(٢) اللطيم تحمل العطر والبرز غير الميرة ، انظر: النهاية في غريب الحديث ٤: ٢٥١ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ١: ١٦٨ - ١٦٩ ، بتصرف . وانظر السيرة النبوية لابن كثير ١: ٢٥٦ .

(٤) التوبة: ٣٧ .

وعلى هذا فما دامت تلك الحرب دفاعاً عن انتهاك حرمة الأشهر الحرم فلا بأس في اشتراكه ﷺ فيها .

وقد أقرَّ الله ذلك في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١).

٣- وضع الحجر الأسود:

قام ﷺ بوضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة حين بناء قريش لها بعد ما اختلفت بطونها في ذلك ، حيث كانت كل قبيلة تريد أن تنفرد بمزية وضع الحجر الأسود في مكانه ، وكادوا أن يقتتلوا لولا مجيء رسول الله ﷺ وحكمه فيهم حكماً يرضي كل الأطراف المتنازعة على ذلك .

عن عبد الله بن السائب قال: كنت فيمن بنى البيت وأخذت حجراً فسوّيته ووضعتة إلى جنب البيت .. وأن قريشاً اختلفوا في الحجر حيث أرادوا أن يضعوه حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف فقال: اجعلوا بينكم أوّل رجل يدخل من الباب ، فدخل رسول الله ﷺ فقالوا: هذا الأمين وكانوا يسمّونه في الجاهلية الأمين ، فقالوا: يا محمد! قد رضينا بك ، فدعا بثوب فبسطه ووضع الحجر فيه ثم قال لهذا البطن ، ولهذا البطن ، غير أنه سمى بطوناً: «ليأخذ كل بطن منكم بناحية من الثوب»، ففعلوا ثم رفعوه وأخذ رسول الله ﷺ فوضعه بيده (٢).

وما قام به ﷺ يدل على مدى فطنته ورجاحة عقله؛ حيث حلّ المشكلة بسهولة ويُسر بعدما كادت أن تؤدى إلى إسالة الدماء والحرب ، كما أنه يدل على مكانته ﷺ عند قومه بحيث إنهم رضوا بحكمه دون تردد.

هذه أهم الأعمال التي اشترك فيها قبل البعثة مع قومه ، وهي ترفع مكانته

(١) التوبة: ٣٦ .

(٢) انظر: الحاكم، المستدرک ١: ٤٥٨ .

وشأنه بين أهله وعشيرته ، لأنها من أعالي الأمور ومن مكارم الأخلاق ، خصوصاً أن بيئته انتشر فيها الفساد و الرذائل التي عصمه الله سبحانه وتعالى منها وأبعده عنها لينشأ خالياً من الدنيا والشوائب .

وقد عثرت على رواية يرويها أبو نعيم في دلائله ، بسنده عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :

« ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهْمون بها إلا مرتين كلتاهما يعصمني الله عز وجل منها ، قلت ليلةً لفتى من قريش بأعلى مكة في أغنام لأهلنا نرعاها : أنظر غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان . قال : نعم ، فخرجت فجئت أدنى دار من دور مكة فسمعت غناء وضرب دفوف وزمراً ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان تزوج فلانة من قريش ، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا مسّ الشمس ثم رجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ففعل ، فخرجت فسمعت مثل ذلك ، فقيل لي مثل ما قيل لي ، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني فما أيقظني إلا مسّ الشمس ، ثم رجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما فعلت شيئاً ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : فوالله ما هممت بعدهما بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته» ^(١) .

ولكن مع ما في نفسي من هذه الرواية ، إلا أنها تدل بشكل واضح على نزاهته صلى الله عليه وآله عن قضايا الجاهلية وأمورها التي كانت سائدة في المجتمع المكي بعناية من الله سبحانه ، وبجانب ذلك كان صلى الله عليه وآله متصفاً بصفات فاضلة وأخلاق حميدة أقرّ له بها المؤيدون والمعاندون على السواء .

وقد أوجزت لنا خديجة أم المؤمنين (رضي الله عنها) صفاته وأخلاقه بقولها بعد فزعه إليها من شدة بدء الوحي :

(١) أبو نعيم ، دلائل النبوة : ٥٤ ؛ والهيثمي ، مجمع الزوائد ٨ : ٢٢٦ .

« كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك تصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل (العيال والثقل) وتكسب المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»^(١).

وتكسب المعدوم، يقال: فلان يكسب المعدوم إذا كان مجذوذاً محظوظاً أي يكسب ما يجرمه غيره، وقيل: أرادت - أي خديجة رضي الله عنها - تكسب الشيء المعدوم الذي لا يجدونه مما يحتاجون إليه، وقيل: أرادت بالمعدوم الفقير الذي صار من شدة حاجته بالمعدوم نفسه^(٢).

وفي مكارم الأخلاق - نقلاً من كتاب النبوة - عن علي عليه السلام أنه كان إذا وصف رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

« كان أجود الناس كفاً، وأجراً الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه». وخديجة (رضي الله عنها) أقرب شخصية لرسول الله صلى الله عليه وآله تصفه بهذه الصفات بناء

(١) ابن الجوزي، غريب الحديث ٢: ٢٩٣.

(٢) غريب الحديث ٣: ١٩١ - ١٩٢؛ وصحيح البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة العلق ٣: ٢١٨.

على تجربة دقيقة وممارسة طويلة ابتداء من ائتمائها له أن يتاجر في مالها ثم اقتراها به ومعاشرته فترةً تبلغ خمس عشرة سنة .

وشهادة من علي عليه السلام هي الأخرى من لسان أقرب شخص لازمه حياته المباركة ، يتعلم منه ويأخذ عنه ويتربى بين يديه منذ نعومة أظفاره ..

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت:

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ^(١) ،

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف «يا صباحاه»، فقالوا: من هذا؟

فاجتمعوا إليه، فقال:

«أرايتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟» قالوا:

ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، قال أبو لهب:

تباً لك ما جمعتنا إلا لهذا ثم قام، فنزلت:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ^(٢) .

ففي قولهم: ما جربنا عليك كذباً دليل واضح على اتصافه صلى الله عليه وسلم بالصدق التام

قبل الرسالة بشهادة أعدائه الذين وقفوا في وجه دعوة السماء على يديه المباركتين .

إنها شهادة من المؤمنين بدعوته صلى الله عليه وسلم وهي شهادة حق وصدق أقرّ بها وبحقيقتها

من لم يتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ويؤمنوا بدعوته؛ فقد صدرت من مجموع المشركين ومثلها

صدرت من أفرادهم، وقد قالها أبو سفيان وهو مشرك عند هرقل ملك الروم الذي

وجه إليه عدة أسئلة تتعلق بأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم من بينها قول هرقل:

«فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟» قلت: لا، ثم قال هرقل في

آخر القصة لأبي سفيان:

«وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا،

(١) الشعراء: ٢١٤ .

(٢) انظر مكارم الأخلاق وصحيح البخاري، كتاب التفسير باب تفسير سورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ٢: ٢٢٢؛

وصحيح مسلم في كتاب الإيمان، باب ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ١: ١٩٤ .

فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ويكذب على الله»^(١).
تلك شهادة المؤمنين والخصوم، تنطق صريحة في أنّ الرسول ﷺ لم يكذب
أبداً قبل البعثة، بل كان صادقاً دائماً.

والصدق أساس الفضائل الأخلاقية وعنوان الإنسانية الكريمة، وقد انطبعت
شخصية رسول الله ﷺ بها بفضل من الله تعالى ورحمة. وهكذا بقية الصفات
الأخلاقية ومنها الأمانة.

وخير ما يدلّ على ذلك قصة وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة أثناء
تجديد بنائها، حينما اختلفت قريش في ذلك حيث أتفقوا على تحكيم أول رجل
يدخل من الباب فدخل رسول الله ﷺ وكانوا يسمّونه في الجاهلية الأمين، فقالوا:
«قد دخل الأمين، فقالوا: يا محمد! رضينا بك»^(٢).

وهذه شهادة صدرت من مجموع المشركين وإن لم يكن بينه وبينهم عداوة
حين نطقوا بذلك القول؛ لأنّ ذلك كان قبل البعثة، إلا أنّها تشهد على اتصافه ﷺ
بالأمانة حتى أصبحت لقباً له.

وعلى هذا نجزم أن الرسول ﷺ كان متصفاً بصفات فاضلة وأخلاق حميدة
قبل البعثة اعترف بها أعداؤه وآمن بها أصحابه مع شيوع الظلم والعدوان وسوء
الأخلاق في المجتمع المكي يومذاك. وذلك بفضل الله وعنايته ورعايته.

أخلاقه بعد البعثة

وأما بعد البعثة فقد كان خلقه ﷺ القرآن كما ورد في حديث عائشة أم المؤمنين
حيث قالت: «... فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن». وهذه الأخلاق الكريمة كانت سبباً في تقريب قلوب أصحابه رضوان الله

(١) انظر صحيح البخاري، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول ﷺ ١: ٨، وصحيح مسلم في كتاب الجهاد، باب
كتابه ﷺ إلى هرقل يدعو إلى الإسلام ٣: ١٣٩٤.

(٢) الحاكم، المستدرک ١: ٤٥٨.

عليهم له ، ولولا اتصافه بها لما تمكّن من تأثير دعوته عليهم وخاصة في أيامها الأولى في مكة .

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى تأثير اتصافه ﷺ بالأخلاق الفاضلة على أصحابه بقوله تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (١) .

وكما أن الأخلاق الفاضلة لها تأثير كبير على الأصحاب ، كذلك أيضاً لها تأثير كبير على الأعداء ، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُونَ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

وقد شهد الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ بالخلق العظيم بقوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣) .

وعن علي عليه السلام قال: سمعت النبي ﷺ يقول: بعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها .

والإمام علي عليه السلام يتحدث عن رسول الله ﷺ ويصفه كما في نهج البلاغة:

كان أجود الناس كفاً، وأجراً الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه، لم أر قبله ولا بعده مثله .

وقال عنه أيضاً: «فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينيه لكيلا يتخذ منها ريشاً، ولا يعتقد لها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب وغيبها عن البصر . وكذلك

(١) آل عمران: ١٥٩ .

(٢) فصلت: ٣٤-٣٥ .

(٣) القلم: ٤ .

من أبغض شيئاً أن ينظر إليه وأن يُذكر عنده». .
وقال عنه أيضاً:

«كان رسول الله ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخسف بيده نعله، ويرقع ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه، ويكون الستر على بابه فيكون عليه التصاوير فيقول: يا فلانة! - لإحدى زوجاته - غيبي عني، فإني إذا نظرتُ إليه ذكرتُ الدنيا وزخارفها...» .

هذا وقد كان له آداب تفرّد بها مع خالقه ومع نفسه ومع زوجاته ومع أصحابه وعامة الناس ومع النساء ومع الصبيان والضعفاء وخادمه ومناوئيه... تحدث عنها وعن صفاته الكثير من الروايات، وهذه طاقة جميلة منها، وكل آدابه جميلة جليلة رائعة:

منطقه ﷺ

كان ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر ليس له راحة، طويل الصمت لا يتكلم في غير حاجة، يفتح الكلام ويختتمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير، دمثاً ليس بالجافي ولا بالمهين، يعظم عنده النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئاً غير أنه كان لا يذم ذواقاً ولا يمدحه، ولا تغضيه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، فضرب راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وانشاح، وإذا غضب غضّ طرفه، جلّ ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام.

قال الصدوق: إلى هنا رواية القاسم بن المنيع عن إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد، والباقي رواية عبد الرحمن إلى آخره: قال الحسن ﷺ: فكتمتها الحسين ﷺ زماناً ثم حدثته به فوجدته قد سبقني إليه فسألته عنه فوجدته قد سأل أباه ﷺ عن مدخل النبي ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يدع منه شيئاً.

قال الحسين عليه السلام: «قد سألت أبي عليه السلام عن مدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان دخوله في نفسه مأذوناً له في ذلك، فإذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس، فيرد ذلك بالخاصة على العامة، ولا يدخر عنهم منه شيئاً».

لسانه عليه السلام

وسألته عن مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف كان يصنع فيه؟ فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزن لسانه إلا عما كان يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليهم عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوى عن أحد بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عن الناس ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل محافة أن يغفلوا ويميلوا، ولا يقصر عن الحق ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة للمسلمين، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة.

مجلسه عليه السلام

قال عليه السلام: فسألته عن مجلسه صلى الله عليه وسلم فقال: كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف، من سأله حاجة لم يرجع إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس منه خلقه فصار لهم أباً، وكانوا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة، ولا ترفع فيه الأصوات، ولا يؤبن فيه الحرم، ولا تتنى فلتاته، متعادلين، متواصلين فيه بالتقوى متواضعين، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب.

فصاحته ﷺ

كان ﷺ أفصح الناس منطقاً وأحلامهم... وكان يتكلم بمجوامع الكلم، لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضاً، بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه، كان جهير الصوت أحسن الناس نعمة.

أدبه ﷺ مع ربه

يقول أمير المؤمنين علي ﷺ: كان لا يُؤثر على الصلاة عشاءً ولا غيره، وكان إذا دخل وقتها كأنه لا يعرف أهلاً ولا حمياً.
وعن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ أيضاً: كان إذا تشاءب في الصلاة ردها بيده اليمنى.

وعن الحسين بن علي ﷺ: كان رسول الله ﷺ يبكي حتى يبتل مصلاه خشية من الله عز وجل من غير جرم..
وعن الإمام جعفر الصادق ﷺ: كان يصلي من التطوع مثلي الفريضة، ويصوم من التطوع مثلي الفريضة.
وعن عائشة: كان يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه.

وعن الإمام جعفر الصادق ﷺ: كان لا يُؤثر على صلاة المغرب شيئاً إذا غربت الشمس، حتى يُصلِّيها.
وعن علي بن أبي طالب ﷺ: كان إذا رأى ما يحبُّ قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكان يتضرع عند الدعاء حتى يكاد يسقط رداؤه.

وعن عائشة: كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه.

وكان ينتظر وقت الصلاة ويشتدُّ شوقه ويترقب دخوله، يقول لبلال: أرحنا

يا بلال.

وقال أبو أمامة: كان إذا جلس مجلساً فأراد أن يقوم استغفر الله عشرة إلى خمس عشرة مرة.

وكان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله جلّ اسمه.

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه ثوبٌ ملقى.

وعن حذيفة: كان إذا حزبه أمر صلى.

وكان إذا مرّ بآية خوفٍ تَعَوَّذَ، وإذا مرّ بآية رحمةٍ سأل، وإذا مرّ بآية فيها تنزيه الله سبحانه.

وكان يقول: قرّة عيني في الصلاة و الصوم.

وعن عائشة: كان إذا صلى صلاة أثبتها.

وقال أبو بكر: كان إذا جاءه أمر يُسْرُهُ به خَرَّ ساجداً شاكراً لله.

وعن أنس خادم النبي: كان أكثر دعوة يدعو بها: «ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار».

وعن عائشة: كان إذا دخل شهر رمضان تغيّر لونه وكثرت صلواته، وابتهل في الدعاء، وأشفق لونه.

وعن ابن أبي رواد: كان إذا شهد جنازة أكثر الصّمات وأكثر حديث نفسه..

وعن ابن عباس: كان إذا شهد جنازة رؤيت عليه كآبة، وأقلّ الكلام وأكثر حديث النفس.

ويقول أبو هريرة: «كان أكثر ما يصوم يوم الإثنين والخميس، فقليل له: لماذا؟ قال: الأعمال تُعرض كلَّ الإثنين وخميس، فيُغْفَرُ لكل مسلم إلا المتهاجرين، فيقول: أخروهما».

وعن عائشة: كان لا يدعُ قيام الليل، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً.

وعنها: كان لا يقرأ القرآن في أقلّ من ثلاث.

وعن ابن مسعود: كان لا يكون في المصلين إلا كان أكثرهم صلاة، ولا يكون في الذاكرين إلا كان أكثرهم ذكراً.

وعن أنس: كان لا ينزل منزلاً إلا ودَّعهُ بركتين .
وعن البراء بن عازب: كان لا يصلي مكتوبةً إلا قنتَ فيها .

كان عبداً رسولاً

عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يذكر أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ملك فقال: إن الله يخيرك أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً أو ملكاً رسولاً .
قال: فنظر إلى جبرئيل وأوماً بيده أن تواضع فقال: عبداً رسولاً متواضعاً، فقال الرسول: مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً، قال: ومعه مفاتيح خزائن الأرض .

وعن الحسن بن علي عن أبيه علي عليه السلام في خبر طويل: «وكان صلى الله عليه وآله يبكي حتى يبتلّ مصلاه خشية من الله عز وجل من غير جرم...» .
وكان صلى الله عليه وآله يبكي حتى يغشى عليه فقليل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ وكذلك كان غشيان علي بن أبي طالب وصيته في مقاماته .

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾^(١) .
اشتغل رسول الله - كما عن أبي سعيد الخدري - بذكر الله حتى قال الكفار: إنه جنّ .
وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتوب إلى الله في كل يوم سبعين مرة، قلت: أكان يقول: أستغفر الله وأتوب إليه؟ قال: لا ولكن كان يقول: أتوب إلى الله، قلت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتوب ولا يعود، ونحن نتوب ونعود، قال: الله المستعان .

أدبه صلى الله عليه وآله مع نفسه

عن عائشة: كان خُلِقهُ القرآن .
وعن أبي سعيد: كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها ..

(١) الأحزاب: ٤١ .

وعن عائشة: كان أبغض الخلق إليه الكذب .
 وعن عائشة: كان إذا عمل عملاً أثبتته .
 وعن ابن عمر: كان لا يأكل متكئاً .
 وعن أنس: كان لا يدخر شيئاً لغد .
 وعن بريدة: كان لا يتطيّر ولكن يتفاءل .
 وعن عائشة: كان لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا تسوّك .
 وعن جابر بن سمرة: كان لا يضحك إلا تبسماً .
 وعن جابر بن سمرة: كان لا ينبعث في الضحك .
 وعن ابن عمر: كان لا ينام إلاّ والسّواك عند رأسه ، فإذا استيقظ بدأ بالسّواك .
 وعن أم عياش: كان يحفي شاربه .
 وعن عائشة: كان يعجبه الريح الطيبة .
 وعن إبراهيم: كان يُعرف بريح الطيب إذا أقبل .
 وعن أبي هريرة: كان يقلم أظفاره ويقصّ شاربه يوم الجمعة قبل أن يروح إلى الصلاة .

ويقول أبو سعيد: كان إذا تغدّى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد .
 ويقول أبو الدرداء: كان إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه .
 ويقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان ينفق على الطيب أكثر ممّا ينفق على الطعام .
 وعن حفصة: كان فراشه مسحاً .
 وعن ابن عباس: كان فيه دعاة قليلة .
 وكان لا يأكل الثوم والبصل والكراث .

أدبه عليه السلام مع زوجاته

يقول أبو ثعلبة: كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يُثنّي بفاطمة ، ثم يأتي أزواجه .

وعن حابس: كان يأمر نساءه إذا أرادت إحداهنَّ أن تنام أن تحمد ثلاثاً وثلاثين، وتسبح ثلاثاً وثلاثين، وتكبر ثلاثاً وثلاثين.

وعن عائشة: كان إذا خلا بنسائه ألين الناس، وأكرم الناس، ضحاكاً بساماً..

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يجلب عنزاً أهله.

وعن عائشة: كان إذا دخل بيته بدأ بالسُّواك.

وعن أنس: كان رحيماً بالعيال.

وعن عائشة وأم سلمة: كان يخيظ ثوبه ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم.

وعن عائشة: كان يعمل عمل البيت وأكثر ما يعمل الخياطة.

وعن عائشة: كان يقسم بين نسائه فيعدل..

وكان يقرع بين نسائه إذا أراد سفراً.

أدبه عليه السلام مع أصحابه

يقول أبو ذر: كان يجلس بين ظهرائي أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى النبي أن يجعل مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه، فبينما له دكاناً من طين فكان يجلس عليها، ونجلس بجانبه.

وعن أنس: كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده

ناولها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه .
وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله ﷺ يده حتى يكون هو التارك ،
فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مأل بيده فنزعها من يده .

وعن علي عليه السلام قال: ما صافح رسول الله ﷺ أحداً قط فنزع يده من يده حتى
يكون هو الذي ينزع يده ، وما فاوضه أحد قط في حاجة أو حديث فانصرف حتى
يكون الرجل هو الذي ينصرف ، وما نازعه أحد قط الحديث فيسكت حتى يكون
هو الذي يسكت ، وما رأيي مقدماً رجله بين يدي جليس له قط .

وعن قرّة بن إياس: كان إذا جلس جلس إليه أصحابه حلقاً حلقاً .
وعن أنس: كان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام ، سأل عنه فإن كان غائباً
دعا له ، وإن كان شاهداً زاره وإن كان مريضاً عاده .

وكان يتجمل لأصحابه فضلاً عن تجمل له لأهله .
وعن جندب: كان إذا لقي أصحابه لم يصافحهم حتى يسلم عليهم .
وعن عائشة: كان إذا بلغه عن الرجل ، لم يقل: ما بال فلان يقول: ولكن كان
يقول: ما بال أقوام يقولون: كذا وكذا .

وعن أنس: كان لا يأخذ بالقرف ولا يقبل قول أحدٍ على أحدٍ .
وعن حذيفة: كان إذا لقيه الرجل من أصحابه مسح يده ودعا له .
وعن جارية الأنصاري: كان إذا لم يحفظ اسم الرجل قال: يا ابن عبد الله .
وعن الإمام الصادق عليه السلام: كان يقسم لحظاته بين أصحابه فينظر إلى ذا وينظر
إلى ذا بالسوية .

ولم ييسط رجليه بين أصحابه قط .
وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يداعب ولا يقول إلا حقاً .
وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: كان يستشير أصحابه ثم يعزم على
ما يريد .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يداعب الرجل يريد به أن يسره .

وعن أنس: كان ﷺ يدعو أصحابه بكنائهم إكراماً لهم و استمالته لقلوبهم، ويكفي من لم يكن له كنية فكان يُدعى بما كناه به .

وعن أنس: كان لا يدعو أحد من أصحابه و غيرهم إلا قال: لبيك .

وعن علي بن أبي طالب ؑ: كان ليسرّ الرجل من أصحاب إذا رآه مغموماً بالمداعبة، وكان ﷺ يقول: إن الله يبغض المعبّس في وجه إخوانه .

وعن زيد بن ثابت: كنّا إذا جلسنا إليه ﷺ إن أخذنا في حديث الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا .

وسأل الإمام الحسين أباه الإمام علياً ؑ: كيف كانت سيرته ﷺ في جلسائه؟

كان ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتمى، فلا يؤيس منه ولا يخيب منه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المرء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيّرهُ، ولا يطلب عثرته ولا عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجي ثوابه، إذا تكلم أطرق جلسائه كأن على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أوّهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في مسألته ومنطقه حتى أن كان أصحابه يستجلبونهم، ويقول: إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فارفدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد كلامه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام .

وعن أبي عبد الله ؑ قال: كان رسول الله ﷺ يقسم لحظاته بين أصحابه؛ فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية، قال: ولم يبسط رسول الله ﷺ رجله بين أصحابه قط، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله ﷺ يده من يده حتى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده .

وفي المكارم قال:

كان رسول الله ﷺ إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه .

مداعبته ﷺ

وعن يونس الشيباني قال: قال لي أبو عبد الله ﷺ: كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟ قلت: قليلاً.

قال: هلاً تفعلوا؟ فإن المداعبة من حسن الخلق، وإنك لتدخل بها السرور على أخيك، ولقد كان رسول الله ﷺ يداعب الرجل يريد به أن يسره.
وعن الصادق ﷺ قال: ما من مؤمن إلا وفيه دعاية، وكان رسول الله ﷺ يداعب ولا يقول إلا حقاً.

وفي الكافي بإسناده عن معمر بن خلاد قال: سألت أبا الحسن ﷺ فقلت: جعلت فداك، الرجل يكون مع القوم فيمضي بينهم كلام يمزحون وبضحكون؟ فقال: لا بأس ما لم يكن، فظننت أنه عنى الفحش.
ثم قال: إن رسول الله ﷺ كان يأتيه الأعرابي فيأتي إليه بالهدية، ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا، فيضحك رسول الله ﷺ، وكان إذا اغتم يقول: ما فعل الأعرابي، ليته أتاناً.

سكوته ﷺ

قال: فسألته عن سكوت رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: كان سكوته ﷺ على أربع: على الحلم والحذر والتقدير والتفكير: فأما التقدير ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى، وجمع له الحلم والصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه، وجمع له الحذر في أربع: أخذته بالحسن ليقتمدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاده الرأي في صلاح أمته، والقيام فيما جمع له خير الدنيا والآخرة.

أدبه ﷺ مع الناس جميعاً

قد وسع الناس منه خُلُقُهُ فصارَ لهم أباً، وصاروا عنده في الخلق سواء، مجلسه مجلس حلمٍ وحياءٍ وصدقٍ وأمانةٍ، لا تُرْفَعُ عليه الأصوات، ولا تَوْبَنُ فيه الحُرْمُ،

ولا تُثَنِّي فلثأته، مُتَعَادِلِينَ، مُتَوَاصِلِينَ فِيهِ بِالتَّقْوَى، مُتَوَاضِعِينَ، يُوقِّرُونَ الكَبِيرَ، وَيَرْحَمُونَ الصَّغِيرَ، وَيُؤَثِّرُونَ ذَا الحَاجَةِ وَيَحْفَظُونَ الغَرِيبَ .

كَانَ إِذَا وَدَّعَ المُؤْمِنِينَ قَال: «زَوَّدَكُم اللهُ التَّقْوَى وَوَجَّهَكُم إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَقَضَى لَكُم حَاجَةَ، وَسَلَّمَ لَكُم دِينَكُم وَدُنْيَاكُم وَرَدَّكُم إِلَى سَالِمِينَ» .

وَكَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَخْزِنُ لِسَانَهُ إِلَّا عَمَّا كَانَ يَعْنِيهِ، وَيُؤَلِّفُهُمْ وَلَا يَنْفَرُهُمْ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُؤَلِّيه عَلَيْهِمْ، وَيَحْذَرُ النَّاسَ وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِي عَنْ أَحَدٍ بَشْرَهُ وَلَا خُلُقَهُ وَيَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ .

وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ ،

وَيُحَسِّنُ الحَسَنَ وَيُقَوِّيه ،

وَيَقْبَحُ القَبِيحَ وَيُوهِنُهُ ،

مُعْتَدِلٌ الأَمْرَ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ فِيهِ ،

لَا يَغْفَلُ مَخَافَةَ أَنْ يَغْفَلُوا وَيَمِيلُوا .

وَلَا يَقْصُرُ عَنِ الحَقِّ وَلَا يَجُوزُهُ .

الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ .

وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنزَلَةٌ أَحْسَنُهُمْ مَوَاسَاةً وَمَوَازَرَةَ ،

كَانَ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى ذِكْرِ .

لَا يُوَطِّنُ الأَمَاكِنَ وَيُنْهَى عَنِ إِطَانِهَا .

وَإِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ المَجْلِسُ وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ .

وَيُعْطِي كُلَّ جَلْسَاءَتِهِ نَصِييَتَهُ ، وَلَا يَحْسِبُ أَحَدٌ مِنْ جَلْسَاءَتِهِ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ

عَلَيْهِ مِنْهُ .

مَنْ جَالَسَهُ صَابِرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ المَنْصَرَفُ .

مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهَا ، أَوْ مَيَسُورٍ مِنَ القَوْلِ .

وَيَقُولُ أَبُو وَاقِدٍ: كَانَ أَخْفَّ النَّاسِ صَلَاةً عَلَى النَّاسِ ، وَأَطْوَلَ النَّاسِ

صلاةً لنفسه .

وعن عبد الله بن بسر: كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ،
ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول: السلام عليكم ، السلام عليكم .

وعن عكرمة مرسلًا: كان إذا أتاه رجلُ فرأى في وجهه بشرًا أخذ بيده .

وعن عقبة بن عبد: كان إذا أتاه الرجل وله الاسم لا يحبُّه حوَّله .

وعن عوف بن مالك: كان إذا أتاه النبيُّ قَسَّمه في يومه فأعطى الأهلَ حظَّين
وأعطى العزبَ حظًّا .

وعن أبي موسى: كان إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال: بَشِّرُوا وَلَا
تُنْفَرُوا ، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا .

وعن عائشة: كان يُغيِّر الاسمَ القبيحَ .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يخرج في مَلَأ من الناس من أصحابه كلَّ
عشيَّةٍ خميسٍ إلى بقيع المدنين ، فيقول ثلاثًا: السلام عليكم يا أهلَ الديار -
وثلاثًا - رحمكم الله .

وعن أنس: كان رحيماً ولا يأتيه أحدٌ إلا وَعَدَ وأنجز له إن كان عنده .

وعن جابر: كان يتخلف في السير فيزجي الضعيفَ ويردُّه ، ويدعو لهم .

وعن ابن عباس: كان إذا دخل على مريض يعوده قال: لا بأس ، طهورٌ ، إن
شاء الله .

ويقول أبو هريرة: كان إذا عطسَ وَضَعَ يده أو ثوبه على فيه وخفَّضَ بها
صوته .

وكان أصبر الناس على أقدار الناس .

وعن ابن عمر: كان إذا صلَّى بالناس الغداةً أقبلَ عليهم بوجهه ، فقال: هل
فيكم مريضٌ أعودُه؟ فإن قالوا: لا ، قال: فهل فيكم جنازةٌ أتبعُها؟

وعن حنظلة بن حذيم: كان يحبُّ أن يُدعى الرجل بأحبِّ أسمائه إليه وأحبِّ
كناه .

وعن ابن عمر: كان يكره أن يطأ أحدٌ عقبه ولكن يمينٌ وشمالٌ .
 وعن أنس: كان ينزلُ من المنبر يوم الجمعة فيكلمهُ الرجل في الحاجة فيكلمهُ ، ثم يتقدمُ إلى مصلاه فيصلي .
 وعن أنس: كان لا يواجهُ أحداً بشيء يكرههُ .
 وعن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام: كان يحملُ الناس من خلفه ما يطيقون .

وكان يُؤثر الداخلَ عليه بالوسادة التي تحته فإن أبي أن يقبلها عزَمَ عليه حتى يفعل .

وكان لا يدعُ أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتى يحملهُ معه ، فإن أبي ، قال: تقدمَ أمامي وأدركني في المكان الذي تريد .
 وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان من رأفته عليه السلام لأُمَّته مداعبته لهم لكيلا يبلغ بأحد منهم التعظيمُ حتى لا يُنظرَ إليه .
 وكان يقول: لا يبلغني أحدٌ منكم عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإنني أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصدر .
 وعن أنس: كان إذا بايعه الناس يُلقنهم: فيما استطعتُ .

أدبُهُ عليه السلام مع الصبيان

عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: كان يسمع صوتَ الصبي يبكي وهو في الصلاة فيخفف الصلاة فتصيرُ إليه أُمَّه .
 وعن أنس: كان إذا أتى ببا كورة الثمرة وضعها على عينيه ثم على شفتيه ، وقال: اللهم كما أرئتنا أوله فأرنا آخره ، ثم يعطيه مَنْ يكونُ عنده من الصبيان .
 وكان إذا يؤتى بالصغير ليدعو بالبركة ، أو يسميه ، فيأخذه فيضعه في حجره تكرمَةً لأهله ، فربما بال الصبي عليه فيصيحُ بعضُ من رآه حين يبول ، فيقول عليه السلام: لا تزرِمُوا بالصبي ، فيدعُهُ حتى يقضي بولهُ ، ثم يفرغ له من دعائه أو تسميته ويبلغُ

سرورُ أهله فيه ، ولا يرون أنه يتأذى ببول صبيهم ، فإذا انصرفوا غَسَلَ ثوبه .
 وعن أنس: كان أرحمَ الناس بالصبيان والعيال .
 وعن عبد الله بن جعفر: كان إذا قدم من سفر تُلَقِّي بصبيان أهل بيته .
 وعن أنس: كان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم .
 وعن أنس: كان يمرُّ بالصبيان فيسلم عليهم .
 وعن عائشة: كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنُّكهم ويدعو لهم .
 وعن أنس: كان يكتفي بالصبيان فيستلين به قلوبهم .
 وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: كان إذا أصبح مسح على رؤوس ولده ،
 وولد ولده .

أدبه عليه السلام مع النساء

وعن جرير: كان يمرّ بنساء فيسلم عليهن .
 وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يسلم على النساء ويردُّون عليه السلام .
 وعن أنس: كان يكتفي النساء اللاتي هنَّ الأولاد ، واللاتي لم يلدن .

أدبه عليه السلام مع ضعفاء الناس

عن أمية بن عبد الله: كان يستفتح ويستنصر بصعاليك المسلمين .
 ويقول أبو سعيد وأبن أبي أوفى: كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشی مع الأرملة
 والمسكين والعبد حتى يقضي حاجته .
 وعن علي بن أبي طالب عليه السلام: كان آخر كلامه: «الصلة ، الصلاة ، اتقوا الله فيما
 ملكت أيما نكم» .
 وعن سهل بن حنيف: كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ، ويعود مرضاهم
 ويشهد جنازتهم .
 وعن ابن عباس: كان يجلس على الأرض ، ويعتقل الشاة ، ويجيب دعوة

المملوك على خبزٍ شعير .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان إذا أكلَ مع القوم طعاماً كان أوَّلَ من يضعُ يده، وآخرَ من يرفعها لياكلَ القوم .

وعن عبد الله بن سنان عن أهل البيت عليهم السلام: كان يذبح يوم الأضحى كبشين أحدهما عن نفسه والآخرَ عمَّن لم يجد من أمته .

أدبه عليه السلام مع خادمه

عن أنس قال: خدمت النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسع سنين فما أعلم أنه قال لي قط : هلا فعلت كذا وكذا؟ ولا عاب علي شيئاً قط .

وقال أيضاً: والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه: لم فعلته؟ ولا لآمني نساؤه إلا قال: دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر .

كان مما يقول للخادم: ألك حاجة؟

وأجاب الإمام علي عليه السلام عن سؤال الإمام الحسين عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أهل الفضل: وكان من سيرته صلى الله عليه وآله وسلم في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بأدبه، وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج فيتشغل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي، ويقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يقدر على إبلاغ حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يقدر على إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون رواداً، ولا يفترقون إلا عن ذواق، ويخرجون أدلة .

أدبه عليه السلام مع أعدائه ومناوئيه

ويقول عمرو بن العاص: كان يُقبلُ بوجهه و حديثه على شر القوم يتألفه بذلك .

وعن عمر بن علي عن أبيه عليه السلام قال: كانت من أيمان رسول الله صلى الله عليه وآله: لا وأستغفر الله .

وفي إحياء العلوم:

كان عليه السلام إذا اشتدّ وجده أكثر من مسّ لحيته الكريمة .

سخاؤه

وكان عليه السلام أسخى الناس لا يثبت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأ الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط ، من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ويضع سائر ذلك في سبيل الله .

لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه ، حتى أنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء ، قال: وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه ، قال: ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس ، قال: لا يهوله شيء من أمور الدنيا .

قال: ويجالس الفقراء ، ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ، ويتألف أهل الشرف بالبرّ لهم ، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، لا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه .

وكان له عبيد وإماء من غير أن يرتفع عليهم في مآكل ولا ملبس ، لا يمضي له وقت من غير عمل لله تعالى أو لما لا بد منه من صلاح نفسه ، يخرج إلى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكيناً لفقره أو زمانته ، ولا يهاب ملكاً لملكه ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاءً مستويماً .

وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضى ، وكان أرف الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس .

وكان عليه السلام إذا سرّ ورضى فهو أحسن الناس رضى ، فإن وعظ وعظ مجد ، وإن

غضب - ولا يغضب إلا الله - لم يقم لغضبه شيء، وكذلك كان في أموره كلها، وكان إذا نزل به الأمر فوَّض الأمر إلى الله، وتبرأ من الحول والقوة، واستنزل الهدى .

من سننه وأدبه ﷺ في العشرة

وفي إرشاد الديلمي قال:

كان النبي ﷺ يرقع ثوبه، ويخفف نعله، ويحلب شاته، ويأكل مع العبد، ويجلس على الأرض، ويركب الحمار ويردف، ولا يمنع الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويصافح الغني والفقير، ولا ينزع يده من يد أحد حتى ينزعها هو، ويسلم على من استقبله من غني وفقير وكبير وصغير، ولا يحقر ما دعي إليه ولو إلى حشف التمر.

وكان ﷺ خفيف المؤنة، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحياً بكل مسلم، ولم يتجش من شبع قط، ولم يمد يده إلى طمع قط .

وفي مكارم الأخلاق عن النبي ﷺ:

أنه كان ينظر في المرأة ويرجل جمته ويتمشط، وربما نظر في الماء وسوى جمته فيه، ولقد كان يتجمل لأصحابه فضلاً على تجمله لأهله، وقال ﷺ: إن الله يحب من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهمياً لهم ويتجمل.

وعن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ خمس لا أدعهن حتى الممات: الأكل على الأرض مع العبيد، وركوبي مؤكفاً، وحلبي العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان لتكون سنة من بعدي.

وفي الفقيه عن علي عليه السلام أنه قال لرجل من بني سعد: ألا أحدثك عني وعن فاطمة - إلى أن قال - فغدا علينا رسول الله ﷺ ونحن في لحافنا فقال: السلام عليكم، فسكتنا واستحيينا لمكاننا، ثم قال ﷺ: السلام عليكم فسكتنا، ثم قال ﷺ: السلام عليكم فخشينا إن لم نرد عليه أن ينصرف، وقد كان يفعل ذلك فيسلم ثلاثاً فإن أذن له وإلا انصرف، فقلنا: وعليك السلام يا رسول الله، أدخل فدخل، الخبر.

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يسلم على النساء ويرددن عليه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام، يسلم على النساء، وكان يكره أن يسلم على الشابة منهن، ويقول: أتخوف أن يعجبني صوتها فيدخل علي أكثر مما أطلب من الأجر.

وعن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني رفعه قال:

كان النبي ﷺ يجلس ثلاثاً: القرفصاء، وهو أن يقيم ساقيه ويستقبلها بيده، ويشدّ يده في ذراعه، وكان يجثو على ركبتيه، وكان يثني رجلاً واحدة ويبسط عليها الأخرى، ولم ير متربعاً قط.

ولا خير بين أمرين إلا أخذ بأشدّهما، وما انتصر لنفسه من مظلمة حتى ينتهك محارم الله، فيكون حينئذ غضبه لله تبارك وتعالى، وما أكل متكئاً قط حتى فارق الدنيا، وما سئل شيئاً قط فقال: لا، وما ردّ سائل حاجة قط إلا أتى بها أو ميسور من القول، وكان أخفّ الناس صلاة في تمام، وكان أقصر الناس خطبةً

وأقلهم هذراً، وكان يعرف بالريح الطيب إذا أقبل، وكان إذا أكل مع القوم كان أول من يبدأ وآخر من يرفع يده، وكان إذا أكل مما يليه، فإذا كان الرطب والتمر جالت يده، وإذا شرب شرب ثلاثة أنفاس، وكان يمصّ الماء مصاً ولا يعبّه عباً، وكان يمينه لطعامه وشرابه وأخذه وعطائه فكان لا يأخذ إلا بيمينه، ولا يعطي إلا بيمينه، وكان شماله لما سوى ذلك من بدنه، وكان يحب التيمّن في جميع أموره في لبسه وتنعله وترجله.

وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا تكلم تكلم وتراً، وإذا استأذن استأذن ثلاثاً، وكان كلامه فصلاً يتبينه كل من سمعه، وإذا تكلم رأي كالنور يخرج من بين ثناياه، وإذا رأيته قلت: أفلج وليس بأفلج.

وكان نظره اللحظ بعينه، وكان لا يكلم أحداً بشيء يكرهه، وكان إذا مشى كأنما ينحطّ في صلب، وكان يقول: إن خياركم أحسنكم أخلاقاً، وكان لا يذم ذواقاً ولا يمدحه، ولا يتنازع أصحاب الحديث عنده، وكان المحدث عنه يقول: لم أربعيني مثله قبله ولا بعده عليه السلام.

وهناك آداب للرسول عليه السلام مع الجميع:

فمن أنس: وكان عليه السلام لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال: لبيك. و عنده: ولقد كان عليه السلام يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم، ويكنّي من لم يكن له كنية فكان يُدعى بما كنّاه به، ويكنّي أيضاً النساء اللاتي هن الأولاد واللاتي لم يلدن، ويكنّي الصبيان فيستلين به قلوبهم. وكان عليه السلام يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن أبي أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل.

و عن عجلان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، فجاء سائل فقام عليه السلام إلى مكيل فيه تمر فلأ يده فناوله، ثم جاء آخر فسأله، فقام فأخذ بيده فناوله، ثم جاء آخر فسأله فقام فأخذ بيده فناوله، ثم جاء آخر فقال عليه السلام: الله رازقنا وإياك. ثم قال: إن رسول الله عليه السلام كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه، فأرسلت

إليه امرأة ابنأ لها فقالت: انطلق إليه فاسأله فإن قال: ليس عندنا شيء فقل: أعطني قميصك، قال: فأخذ قميصه فرمى به - وفي نسخة أخرى فأعطاه - فأدبه الله على القصد فقال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ . وفيه روي: أن رسول الله ﷺ كان لا يدع أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتى يحملة معه فإن أبي قال: تقدم أمامي وأدركني في المكان الذي تريد .
وعن أبي القاسم الكوفي في كتاب الأخلاق: وجاء في الآثار: أن رسول الله ﷺ لم ينتقم لنفسه من أحد قط بل كان يعفو ويصفح .

وكان رسول الله ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان شاهداً زاره ، وإن كان مريضاً عاده .
وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة .

وفيه عن موسى بن عمران بن بزيع قال: قلت للرضا عليه السلام: جعلت فداك، إن الناس رووا أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ في طريق رجع في غيره! كذا كان؟ قال: فقال: نعم فأنا أفعله كثيراً فافعله، ثم قال لي: أما إنه أرزق لك .
وعن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يخرج بعد طلوع الشمس .
وعن عبد الله بن المغيرة، عمّن ذكره قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس إليه حين يدخل .

وعن جعفر بن محمد عن آبائه عن علي عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يرجل شعره، وأكثر ما كان يرجل بالماء، ويقول: كفى بالماء طيباً للمؤمن .